ثورة الإسلام

للأستاذ حسن جواد الجشي

كان الإسلام ثورة هائلة من ثورات الطبيعة الكبرى على جمود العقل البشري وتحجره، فأطلقه بعد أن كان موثقاً في قيود الأوهام والخرافات، وأشعره بقيمته بعد أن كان فانياً في تفاهات الحياة وصغائرها؛ وقلب أوضاع تلك الحياة رأساً على عقب وأبدلها بأوضاع أجدر بشرف الإنسان وكرامته. وتلك هي وظيفة الثورة الإصلاحية في كل زمان.

وإذا كانت الثورة كما يعرفها أحد كتاب الغرب (هي سقوط وتهدم يحدثان في فترة صغيرة لجميع ما كان يعد إلى ذلك الوقت أصلاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية في الأمة) فما أحرانا ونحن بصدد التحدث عن مبادئ الثورة الإسلامية أو عن ثورة الإسلام أن نلقي نظرة خاطفة على بعض النظم التي جاء الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها لا بين العرب فحسب، وإنما في غيرهم من سائر الأمم أيضاً، لأن الأثر الذي تركه الإسلام لم يقتصر على العرب، وإنما شمل أمماً غيرهم ولو في الشكل دون الجوهر.

يقول الكاتب الانجليزي (H. G. Wells) هـ ج. ولز في كتابه «موجز تاريخ العالم» عند تحدثه عن تلك الحقبة من تاريخ البشر ما ترجمته: «لو أن متنبئاً من هواة التاريخ استعرض العالم في مستهل القرن السابع لكان من المحتمل أن ينتهي إلى الحكم بأنه لن تمضي إلا بضعة قرون حتى تصبح قارتا أوربا وآسيا خاضعتين للحكم المغولي القائم في الصين؛ إذ لم يكن هناك ما يدل على وجود أي نظام أو اتحاد في أوربا الغربية؛ أما الامبراطوريتان الرومانية والفارسية فقد كانت كل منهما منطوية على هدم الأخرى وتحطيمها؛ وإذا التفت إلى الهند فإنه يجدها منقسمة على نفسها خاوية ...» ثم يقول: «والخطأ الذي كان من المحتمل جداً أن يرتكبه متنبئنا هذا في استعراضه هو تجاهله للقوى الأصيلة الكامنة في الصحراء العربية».

وفي هذا القول دلالة واضحة على أن العالم كان حينذاك يتخبط في غياهب الفوضى ودياجير الانحلال، وأنه إذا كان ثمة بصيص أمل لإنقاذه فآفاق الصحراء العربية هي التي كان يتخايل على حواشيها هذا البصيص؛ لا لأن سكانها كانوا في يقظة عقلية تؤهلهم للقيام بدور المنقذ، كلا بل لأن أرواحهم كانت نقية لم تدنسها شوائب المدنية أو يدب إليها وهن النعيم. فما هو إلا أن تستثيرها وتوجهها الوجهة الصالحة حتى تأتي بالعجائب في ميادين الثقافة والتقدم.

وعلى خلاف ذلك كانت بيزنطه وفارس، فقد كانتا في حروب متواصلة تنتصر هذه مرة وتفوز تلك أخرى؛ وبرغم ذلك لم تكن الحالة السياسية الداخلية في كلتا الامبراطوريتين لتعرف الهدوء والاستقرار. أما الأخلاق فقد بلغت منتهى التدهور والانحطاط حتى عادت النفوس ولا مهما زلها يدفعها ويثير فعاليتها غير الشهوة الجنسية، وإلا فما معنى ذيوع مذهب مزدك في ذلك العصر — وهو مذهب إباحي هدام — لو لم تكن النفوس مستعدة لقبوله؟!

وإلى جانب ذلك كان يقوم في أكثر أنحاء العالم تقريباً نظام من الاسترقاق الفظيع الذي لا يعرف غير العنف والقوة في معاملة الأرقاء والمستعبدين، فكان مباحاً للسادة أن يتصرفوا في حيوات أرقائهم كما يتصرفون في سائر أمتعتهم، فإن شاءوا أبقوا وإن شاءوا أبادوا دون أن يسألوا أمام قانون أو عرف. وإذا عاقبوهم فبالكي على الجباه والجلد بالسياط إلى آخر ما هنالك من ضروب القسوة.

وقد يخطر لأحد القراء أن يسأل: وأين إذن تعاليم المسيحية

لتكشف من غرب هـذه الشهوات وتحدّ من جموحها وتعيد النفوس إلى نقاوة الفطرة وطهارة الإيمان . . والجواب على ذلك أركه المؤرخ الانجليزى « جيبون » إذ هو خير من توفر على دراسة هذا العصر . قال جيبون : « إن النصرانية فى القرن السابع للميلاد قد استحالت وثنية ، فقد أصبحت الوجوه تولى شطر الأصنام والأنصاب التى حلت محل الهياكل والمعابد وأخذ مكان عرش الله وعظمته القديسون والشهداء ، وحارت الأفهام فى معنى التثليث والاتحاد والحلول وعموا عن التوحيد » .

أما فى مكة والطائف فلم يكن الوضع أحسن منه فى بيزنطه وفارس ؛ فقد فشا فيهما الانحلال الخلقى وسفات مكانة المرأة حتى وأد الآباء بناتهم ، وجاس المرابون خلال الشعب يمتصون دمه مستغلين فقره وحاجته ، حتى أكره بعض المحتاجين بناتهم على البغاء ليستطيعوا وفاء ما ركبهم من ديون ؛ فلما جاء القرآن نهاهم عن ذلك « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

* * *

شرور تتلوها شرور ! وظلمات فوقها ظلمات ! فلابد من النور ! لابد من النور ! وإلا تاه القطيع وتردى فى هاوية الفناء !

وشع النور ! وتلألأ واستفاض ! وإذا بصوت محمد يتعالى فى شعاب مكة وبطاحها منادياً : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا » .

وكانت تلك الدعوة شرارة الثورة الكبرى ، الثورة التى قلبت الأوضاع الجائرة ، ومحت النظم البائرة ، ونقلت العالم من حال إلى حال ، والإنسانية من ضعة إلى جلال .

لقد استهل الاسلام ثورته بالدعوة لتوحيد الله وقرن النجاح بهذا التوحيد ، فما معنى ذلك ؟ معناه أن الاسلام يعتبر وعى الروح أصلاً لوعى العقل ؛ معناه أن الأمم مهما وفر حظها من ثقافة العقل ، فان هذه الثقافة لابد لها من عقيدة روحية تستندها وتنيرلها المسالك وتأخذبيدها نحوصالحهاوصالح الحياة الانسانية ، وإلا هدمت ما شيدت واقتلعت ما زرعت وتلبست طبائع الهر فأكلت ما أنجبت ؛ ولهذا وجه محمد أول ما وجه من جهود نحو غرس هذه العقيدة الروحية ، فعمل على تطهير الأرواح مما علق بها من أدران الشرك واستبطأها من عقابيل الوثنية ، ونادى أول ما نادى أن إله إلا الله ، فلا الشهوات بعد اليوم ولا القوة ولا المال ولا الأصنام هى التى تعنولها الحياة ، وإنما تعنو لله الأحد الصمد خالق الخلق ومدبر كل ما فى الكون . وبهذا مهد السبيل للنفس الإنسانية لتفلت من قيودها الثقيلة المرهقة وتتصل حرة ببارئها تستلهم منه العون والهداية على مواصلة الكفاح وسلوك أقوم السبل دون لجوء لوساطة كاهن أو شفاعة ولىّ « وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

هذا التسامى بالنفس الإنسانية والتعالى بها عن ضلالات العقول وزيغ البصائر هو الذى يفتقده الباحث فى كثير من تاريخ الثورات البشرية ، فالفرنسيون مثلاً بعد أن ثاروا ثورتهم الكبرى وحطموا معاقل الظلم وزلزلوا معالم الاستبداد وأعلنوا حقوق الإنسان الطبيعية التى تستند إلى مركزه فى الحياة ، ساق الثائرون أنفسهم أكثر من ألفين من خيرة رجال الثورة إلى المشانق ثم عمدوا إلى أجمل فتاة فى باريس ووضعوها فى إحدى الكنائس وأخذوا يقدمون لها فروض العبادة ومراسيم الخشوع باسم « ربة العقل » ، ناسين ما أعلنوه قبل ذلك من حرية البشر وتساويهم ؛ وما كانوا ليقعوا فى مثل هـذا الهوس والتطرف ، لو أن ثورتهم استندت إلى وعى روحى شامل كثورة الإسلام .

والحقيقة أن هـذا الوعى الروحى الذى يقدّر الشخصية الانسانية ويحدد صلة هـذه الشخصية بالروح السارية فى هذا الكون ثم صلتها ببنائر الأحياء والكائنات ، نعم هـذا الوعى هو الذى صقل النفوس المسلمة وهيأها لسائر الانقلابات الاجتماعية والعقلية لأنه وجهها وجهة واحدة وقضى على شعور الخضوع الرائن عليها فنتج عن ذلك إحساس قوى بكفايتها وقدرتها على الفهم والتدبر .

ومن هنا كان ذلك الانقلاب العظيم الذى أحدثه الاسلام فى تقدير العقل واحترام أحكامه باعتباره هادى البشر — بعد الروح — فى جهادهم نحو الكمال. فلقد كان الناس قبل ذلك أسرى موروثاتهم وتقاليدهم لا يصدقون إلا ما كان عليه آباؤهم ، وما كان عليه آباؤهم هو الجهل والجمود ، فدعاهم الاسلام إلى التفكير

والتأمل وشبه الذين لا يعقلون منهم بالأنعام بل أحط منزلة « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل أضل سبيلا » ؛ ولذلك كان سلاح الاسلام الوحيد لغزو النفوس هو الحجة العقلية والبرهان الاقناعي ... ويوم سأل الكفار الرسول أن يأتيهم بما عددوا من المعجزات أجابهم دهشاً : « سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ! » .

أليس في ذلك إيذان بأن البشرية قد بلغت طوراً لا يليق بها فيه ان تقنع بغير ما يمليه العقل، وأن الأسلام يتمشى مع هذا العقل ؟ ثم ما قولنا في دين يجعل تفكر ساعة خيراً من عبادة ستين سنة ؟ إنه ـ وربي ـ لدين يجدر بالبشرية أن تحوطه برعايتها وتجدّ في تفهم أغراضه ومراميه ؛ لأنه كان فاصلاً بين عصرين مختلفين من عصورها : عصر السحر والخرافات وعصر العقل والعلم ، وبذلك نقلها نقلة وسّعت آفاق وعيها وألهبتها شوقاً للمعرفة والاطلاع ، فكان ذلك ارهاصاً لكل التطورات الثقافية والعلمية التي نعم بها العالم بعد ذلك .

وعلى أساس هذا الوعي الروحي والعقلي نقل الأسلام مبدأ التوحيد من منطقة العقيدة إلى مجال الاجتماع فثار على جميع الفواصل المصطنعة بين الأفراد والأمم ، وحارب كل فكرة من شأنها أن تجر الى التنابذ والتنافر، وقرر أن البشر وحدة لا تتجزأ كلهم من آدم وآدم من تراب ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم ، واتقاهم أبرهم عملاً وأخلصهم سعياً ، لا أكثرهم تهجداً وأطولهم عبادة ، وإذا كان الناس قد خلقوا شعوباً وقبائل مختلفة فلكي يتعارفوا ويتعاونوا لتستفيد كل أمة من مواهب الأمم الأخرى وخصائصها لا أن يتخذوا هذا الاختلاف ذريعة للتناحر والتباغض (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . والأمم والأفراد يختلفون طبعاً في استعدادهم للتقوى وللتعاون مع الغير باختلاف بيئاتهم وظروف حياتهم .

وتطبيقاً لهذ المبدأ من المساواة والتوحيد الاجتماعي أخذ الاسلام بيد المرأة ورفعها من مراغة المهانة والاستعباد إلى ذروة الشرف والكرامة مقرراً حقها الطبيعي في الحياة : (ولهن مثل الذي عليهن) .

وإذا التفتنا بعد هذا الى الثورة التي احدثها الإسلام في حياة البشر الاقتصادية وجدنا عجباً من العجب، وجدنا نظاماً اقتصادياً لو أخذ به البشر وتمسكوا بأهدابه لكفوا كثيراً من ويلاتهم الاجتماعية والخلقية لأنه يكفيهم الفقر ، والفقر منبع أكثر الشرور والمصائب .

لقد كان النظام الطبقي بالغاً اشده قبل الأسلام فكان الاغنياء والأشراف يستغلون جهود الشعب ويبتزون ثمرات اتعابه ـ كما يفعلون اليوم ـ ويثقلون كاهله بمختلف الأتاوات والضرائب دون أن يستطيع دفع ذلك أو مناهضته . والى جانب هؤلاء كان المرابون الجشعون يمتصون ما تبقى من هذه الجهود غير راحمين ولا مشفقين . فلما جاء الاسلام قلب هذه الأوضاع واعاد الحق الى نصابه فحرم الربا وجعل في أموال هؤلاء الأغنياء حقاً معلوماً للمحرومين ملزمين شرعاً وقسراً بادائه لهم ، بعد أن كان هؤلاء المحرومون ملزمين بتقديم ثمرات اتعابهم للاغنياء دون مقابل . . وبهذا التشريع أقام الاسلام الدعامة الثالثة التي هي التوازن الاقتصادي ؛ وهو كالتوحيد الاجتماعي عامل ضروري في هناء البشر وتقدمهم كما أنه نتيجة حتمية لمبدأ التوحيد .

هذه أقباس من تلك الشعلة العظيمة التي تفتح عنها قلب الغيب فتلقتها القلوب العربية المسلمة ، وسهرت عليها تغذيها وتلهب ضرامها ، حتى إذا تم لها ذلك امحاجت بها في أطراف الدنيا تزرع جذواتها في كل نفس تتصل بها فتذيب أرجاسها ، وتنفث فيها الإيمان والقوة . . فيا ليت شعري ما الذي حل بالمسلمين اليوم ـ وهم أحفاد أولئك المنارير ـ حتى خمدت هذه الشعلة في نفوسهم وعادوا غرضاً لكل طامع وهدفاً لكل مريد ! ؟

إن في الأمر لسراً ، على أن السر اجلى من أن نجدّ في الكشف عنه . . السر أن المسلمين (وقد طال عليهم العهد وتنكروا لبيئتهم الصحراوية الأولى) . نسوا مبادىء دينهم وتمسكوا بالأعراض والقشور ، وانقسموا بينهم شيعاً واحزاباً يتنابذون ويتهاترون .

فيا قلب الغيب شعلة كتلك الشعلة ! عساها تحرك هذه النفوس الهوامد عساها !

(القاهرة)

حسن فهمي الجشي
عضو البعثة البحرانية